الأنثوية الشعرية
نازك الملائكة نموذجًا

د. جوان عبد القادر عبد الله

ملخص البحث

يدور موضوع البحث حول المساهمة الأنثوية في الشعر، وكيف أنها من الممكن أن تشكل تحولًا إلى نوع جديد من الشعر، ليس من الناحية الشكلية فحسب، بل في الأسلوب والمضامين أيضًا.

ومن هنا حاول البحث الوقوف عند إشكالية مصطلح "الأنثوية"، ومن ثم محاولة تحديد أبرز سمات الأنثوية الشعرية عند (نازك الملائكة) الشاعرة العراقية المعاصرة التي حاولت أن تخوض حربًا لاسترداد حقها في المجتمع الذكوري المستبد، إضافة إلى حقها كأنثى في اللغة والأدب. ومن يقف عند قصائد الشاعرة يلمح فيها معاناتها التي كشفتها عبر توظيفها لما هو داخل الأنثى في كتاباتها الشعرية، وذلك عبر مبحثين :

الأول: محاولة تحديد مفهوم الأنثوية الشعرية .

الثاني: التجربة الأنثوية الشعرية في شعر نازك الملائكة - نماذج مختارة.

وأخيرًا الخاتمة التي أدرجت فيها أبرز نتائج البحث.

المقدمة

لقد شكَّل استبداد الذكر بالأنثى وهيمنته على المجتمع بشكل عام واقعًا مريرًا للأنثى؛ حيث وقوع الظلم والقهر، وبالتالي لم تكن الأنثى في المجتمع سوى وسيلة للإمتاع، ولم يكن حضورها إلا جسدًا يُلبي رغبات الرجل لا أكثر.

كل هذه الأمور جعلت الأنثى تشعر بالدونية، ولم يقتصر هذا التعدي على المرأة على الحياة الاجتماعية وحدها، وإنما امتد إلى مجالات أخرى. ففي مجال الأدب والشعر تحديدًا لم تكن المرأة سوى موضوع شعري جمالي وفكري وفلسفي يتغنى به الشعراء، إلى أن فرضت المتغيرات النهضوية وجودها لتستثير في الأنثى رغبتها في الخلاص.

وبالتالي أصبحت الكتابة الأنثوية مطلبًا ضروريًّا لا بد أن يتحقق لمواكبة العصر، لتكون هذه الكتابة -وتحديدًا الشعر- منفذًا لها لتحقيق أمانيها، واسترداد جزء من حقها المشروع. وقد كانت الشاعرة العراقية المعاصرة نازك الملائكة خير نموذج لتحدي واقع المرأة المرير، وذلك بدءًا من دورها الريادي في كتابة الشعر الحر الذي اعتبره الكثيرون نوعًا من التمرد على الفحولة الذكورية التي امتدت لقرون طويلة، لذا جاء اختيارها في هذا البحث للوقوف على ما قدمته الشاعرة في هذا المجال (الأنثوية الشعرية – نازك الملائكة نموذجًا).

المبحث الأول
تحديد مفهوم الأنثوية الشعرية

الدعوة إلى المساواة بين الرجل والمرأة توالت عبر السنين، وتحديدًا في القرن التاسع عشر، حيث توالت المؤتمرات والندوات، وتحديدًا من الأقلام الأنثوية، إن صح القول، ومنها على سبيل المثال: زينب الأعوج، وفضيلة الفاروق، وأحلام مستغانمي.

ورغم كثرة هذه الدعوات إلا أن هذه المساواة لم تتحقق؛ حيث إن المرأة لم تتعد عند الكثير سوى جسد، وبالتالي وسيلة للمتعة، حتى عند ممن يسمون أنفسهم مثقفين ودارسين، وبقيت عند مجموعة أخرى قاصرة، رغم الثقافة وشهاداتها العليا؛ لكونها مهما تعلمت وارتفع

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

مستواها العلمي فهذا لا يغير من واقعها شيئًا؛ كونها في النهاية امرأة، بل إن أنوثتها فرضت عليها قيودًا تضيق عليها الخناق، وإن اختلفت رخاوة هذه القيود من بلد إلى آخر.

وفي عالم الشعر العربي تحديدًا حاولت روح الفحولة تهميش دور المرأة أو إقصاء الأصوات الأنثوية من الساحة الأدبية، وإن كانت تكتب بلسان ذكوري، فالفحولة هي شدة انفتاح الذكورة وتضخمها، فلا بد أن يقابلها من الأنوثة ضآلتها وتذللها، على ذلك تكون المرأة في عموم روح التراث موضوعًا تسقط عليه الفحولة وتحركه وتستمتع به[١].

إلا أن التحول الحداثي الذي شهدته المجتمعات على المستوى العام؛ أي التمدن والحضارة، عمل على إضفاء شيء من الشرعية والوجود بالنسبة للمرأة؛ مما دعا بالتالي إلى ظهور ما يسمى بالكتابة النسوية (feminism)، والأدب النسوي أو الأنثوي، وتحديدًا منذ ستينيات القرن الماضي[٢].

وأول ظهور لمصطلح النسوية كان على يد الفرنسية "هوبرتين أوكلير" عام ١٨٨٢م، على الساحة الأدبية تحديدًا، إذ رافقه ظهور مصطلحات أخرى، على سبيل المثال: الأدب النسوي، والكتابة النسوية، والشعر النسوي والنسائي والأنثوي، وبالتالي كان لكل من هذه المصطلحات مؤيدون ورافضون لها. ولكل من هذه المصطلحات دلالتها المختلفة. ومن هنا ظهر الخلط بين هذه المصطلحات، ولذا تعددت وجهات نظر الباحثين والدارسين في هذا المجال.

فمصطلح "الكتابة النسوية" يتسم بشيء من الغموض وعدم الوضوح؛ حيث إننا حين نقول الكتابة النسوية، هل نعني بها كل ما تكتبه المرأة من كتابات سواء أكانت أدبية أم غير أدبية؟ أم نعني بها كل ما يكتب عن المرأة من كتابات ونقد؟ وبذلك نبتعد عن المجال الذي يعنينا ونعمل فيه. وترى الباحثة الريطانية "توريل موي" أن النسوية عبارة عن نوع خاص من الخطاب السياسي، وأنه تطبيق نقدي ونظري يلتزم بالصراع ضد الأبوة (patriarchy). أما الكاتبة العربية الدكتورة زهور كرام فاعتبرت أن ما يقف خلفها "فهم الكتابة عن المرأة باعتبارها واجهة تحررية من التصورات السائدة"[٣]. وبهذا فإن الكتابة النسوية تحتوي على شيء من العمومية، وهي ليست أكثر من حركة فكرية تهدف إلى إعادة الحرية للمرأة، وبالتالي فإن النقد النسوي –أيضًا– يحارب كل أشكال السلطة الأبوية، والتميز الجنسي، والمعرفي، والديني، والطبقي، بهدف إثبات ذات المرأة في المجتمع كإنسانة لها كيانها. ومن الذين استخدموا هذا لمصطلح الدكتورة ناديا العشيري، والباحث عبد النور إدريس.

أما الأدب النسوي: فإن ما يميزه عن المصطلح الأول أنه يحدد مجال الكتابة في الأدب، لا في مجال آخر، إلا أن إشكالية المصطلح هي الاختلاف الكمي للأدب النسوي بالنسبة للجنس الأدبي من شعر ورواية وقصة، حيث يتقدم الشعر بقية الأجناس الأدبية بفارق كبير من الكمية، وربما يعود ذلك إلى المساحة التي يوفرها الشعر قياسًا ببقية الأجناس الأدبية للتعبير عن أحاسيسها ومشاعرها وأنوثتها، فالشعر عند المرأة يمثل خير خلاص لها من معاناتها، بل إنها وجدت في الشعر ملاذها، وبالتالي فإن المرأة تجد نفسها في الشعر أكثر من بقية الأجناس.

أما الأدب الأنثوي: فهذا الأدب يخوض في الجانب الأنثوي من أدب المرأة، حيث في هذا المجال لا يمكن للكاتب الذكر أن يغوص فيه، وبالتالي يحيلنا إلى ميزة نسائية خاصة بالمرأة، وفي هذا المجال تعرف "سارة جامبل" الأنوثة بأنها "مجموعة من القواعد التي تحكم سلوك المرأة ومظهرها، وغاية القصد منها جعل المرأة تمتثل لتصورات الرجل عن الجاذبية الجنسية المثالية"[٤]. وبالتالي فإن الأنثوي يعبر عن خصوصية إنسانية ونفسية تمثل كل تراكمات قرون مضت عانت فيها المرأة ما عانت، وبهذا يكون هذا المصطلح هو الأقرب –من بين التسميات التي ذكرناها– إلى روح الأنثى بكل معانيها؛ أي يعبر عما تحمله الأنثى في داخلها من خصوصية.

وإذا ما انتقلنا إلى الأنثوية الشعرية موضوع دراستنا، فإننا نقول بداية: إن الأنثوية ليست صفة نلصقها بما تكتبه الإناث في الأغراض الأكثر التصاقًا بالجسد؛ أي التي تعبر عن حضور الأنثى كجسد في النص، خاليًا من الروح، بل على العكس تمامًا، الأنثوية الشعرية تحيلنا إلى الحضور الأنثوي في الشعر كيانًا وروحًا، فالأنثى ذات شعرية بامتياز؛ "لأن الكتابة الشعرية مثال صريح لقلق الروح، يغدو النص الشعري الأنثوي فرصتها للنفاذ إلى حرية الحضور بالكلام الحر، ليتأكد الإحساس بالطبيعة الأنثوية المتميزة"[٥].

ومن هنا فقد استطاعت الأنثى إثبات ذاتها في عالم الأدب، والشعر تحديدًا، وبالتالي كسر سمة الفحولة، لتؤنث الشعر، والشاعرة

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

العراقية نازك الملائكة خير مثال على ذلك، حيث يقول الغذامي عن نازك الملائكة: "إن عمل نازك الملائة كان مشروعًا أنثويًّا من أجل تأنيث القصيدة، وهذا لم يكن ليتم لو لم تعمد أولًا إلى تهميش العمود الشعري، وهو عمود مذكر، عمود الفحولة"٦. ومن الواضح أن ما دفع نازك الملائكة لكسر قواعد عمود الشعر هو إحساسها بالتهميش، وهي محاولة للدفاع عن أنوثتها وحريتها وحقها في الإبداع، شأنها شأن الرجل الذي فرض سلطته الذكورية لقرون طويلة دون أن يأخذ بالحسبان مشاركة المرأة أو وجودها في الساحة.

وفي اعتقادي أن المسؤول عن الاستخفاف بحقوق المرأة -على الساحة الأدبية تحديدًا- ليس العنصر الذكوري فحسب، بل إن ما تتحمله الأنثى من مسؤولية في هذه المسألة يفوق بكثير مسؤولية العنصر الذكوري؛ لأن الأنثى هي التي أفسحت المجال لهذا التهميش، فالأنثى رغم دخولها إلى الساحة الأدبية منذ قرون طويلة إلا أنها لم تكتب طوال هذه القرون إلا بلسان الذكر، وبالتالي حتى في الموضوعات التي تناولتها لم تكن لتعبر عما تحمله في نفسها من هموم ومشاعر وأحاسيس، وإنما كانت تكتب بلسان الذكر، وتكتب عن أمور عامة، كثيرًا ما دارت حولها الأحاديث، دون أن تغوص كتاباتها في أعماق الأنثى، ودون أن تطالب من خلال كتاباتها بحقوقها، وإلا فإن تاريخ الكتابة النسوية -إذا صح القول- ليس بالقصير، فالأنثى هي التي غبنت نفسها أول الأمر، ومن ثم غبنت من الرجل، وهنا نعود إلى ضرورة "دراسة نص الشاعرة والكاتبة يأتي ضمن إمكانيات منجز الحداثة في الشعر والأدب العربي، فلا يمكن لأنسنة وعصرنة النص الجديد أن تغفل عن صوت المرأة كمشروع متحضر نادت به الأفكار والحركات الاجتماعية العربية والعالمية خلال القرنين الأخيرين من هذا الزمان"٧. ومن هنا جاء صوت الأنثى ليؤكد ذاتها، وجاء الشعر ليحتضن الذات الأنثوية، وليعبر عن آلامها ورغائبها، فمن خلال الشعر ترى الأنثى تجاربها هي بوعيها هي، بنظرتها هي لا بنظرة الذكر، وجاءت الأنثوية الشعرية لتعلن رفض الأنثى للواقع المظلم في حياتها على مختلف الأصعدة اجتماعيًّا ونفسيًّا وسياسيًّا، "إن المقصود بشعر الأنثى المتمردة هنا هو ذلك الشعر الذي تتجرأ فيه الشاعرة أن تقول ذاتها، وتعبر عن خلجات عواطفها وأحاسيسها الجسدية، سواء كتجربة حدثت أو كرغبة كامنة"٨. وبالتالي فإن النص الشعري الأنثوي "هو خطاب متعدد الأبعاد، ينهض على بنية فكرية، وهو صادر بالضرورة عن ذات فكرت فيه، وأنتجته ضمن بنية تفكير أنثوي"٩.

ومما مر فإن هناك إشكالية وتداخل بين هذه المصطلحات، لذا تعرض الكثير من الباحثين والدارسين لهذه الإشكالية محاولين تحديد المصطلح الأكثر ملائمة، ومنهم "توريل موي" التي فرقت بين ثلاثة من المصطلحات هي: النسوية، والأنثى، والنسائية، فهي ترى أن النسوية قضية سياسية، وأن الأنثى مسألة بيولوجية، وأن الأنوثة مجموعة خواص محددة ثقافيًّا١٠، ويرى البعض أن (أنثوى وأنوثة) تدل على ميزة نسائية روحية لصيقة بالمرأة (من الداخل) دون غيرها. أما "سارة جامبل" فتعرف الأنوثة بأنها "مجموعة من القواعد التي تحكم سلوك المرأة ومظهرها، وغاية القصد منها جعلها تمتثل لتصورات الرجل عن الجاذبية الجنسية المثالية"١١؛ بمعنى أن الأنوثة صفة لخصيصة من خصائص المرأة الاجتماعية، مثل: الحياء والخجل والدلال، وهي صفة لا يمكن أن نجدها في الرجل السوي، ولكننا نرى عكس ذلك، فأنثوية الشعر ليست صفة نلصقها بما تكتبه الأنثى في الأغراض الأكثر التصاقًا بالجسد والروح والمشاعر والعشق، بل هي رؤية للطبيعة الأنثوية للشعر، وكذلك الغناء والموسيقى التي تترابط معه، وقربه كلون أدبي من الطبيعة الأنثوية. فشعر الأنثى يأتي كي يخترق كل ما هو محظور (المفروض من قبل الجنس الذكوري)؛ ليؤكد حضور الأنثى الذي غيب عبر توالي الزمان، فبعد أن كان حضور الأنثى مجرد حضور للجسد يخلو من الحياة، فإن الأنثوية الشعرية تنادي بالتغني بالمشاعر الأنثوية الروحية مع لغة الجسد نفسه، وهو ما رفضته السلطة الذكورية، وبالتالي فإن الشعر هو خير وسيلة لدفاع الأنثى عن حضورها وذاتها؛ لأن طبيعة الشعر ينسجم مع طبيعة الأنثى ورغبتها في كشف مكنوناتها.

ومهما يكن من إشكالية في المصطلح، فإننا ننوه هنا إلى أنها لا تعدو أسماء لمسميات، فالشعرية النسائية والأنثوية ظهرت إلى الوجود لعدم وجود منهجية واضحة بهذه التعددية، وعلى الرغم من وجود الكثير من المعارضين لفصل الكتابة الأنثوية عن الكتابة الذكورية؛ لأنها برأيهم تنتقص من مكانة المرأة، ف"جوليا كريستسفيا" ترفض مفهوم الهوية نفسه، بما في ذلك القول بهوية نسوية وأخرى رجالية، باعتبار أن المفهوم ينتمي إلى مرحلة ما قبل التفكيكية، وترفض أية نظرية لعلاقات القوى تعتمد الاجتماعية. وهو مفهوم يضع المرأة في مكان هامشي ضمن منظومة من علاقات القوى الرمزية في المجتمع الأبوي. فمن وجهة نظرها لا توجد فروق بين الجنسين وإنما تظهر هذه الفروق بسبب الجدل بين آليات التوليد اللغوية وحركة القوى الحاكمة التي تظهر هذه الفروق وتحرص عليها"١٢.

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

وعلى الرغم من الجدل الذي أثارته هذه المصطلحات، ورغم بعض الرافضين لهذه المصطلحات؛ كون هذا الموضوع ينال من مكانة المرأة، وكون الكتابة لا علاقة لها بالجنس الذي يكتب سواء أكان ذكرًا أم أنثى، فإننا نتفق معهم –أيضًا- في أن الكتابة في حد ذاتها لا تختلف بين الجنسين، لكن الموضوعات وزوايا النظر والحساسيات تختلف، لذلك نجد الكتابة لدى الرجل تتأثر بخصوصيات غير خصوصيات المرأة، حيث إن للمرأة زوايا نظر لموضوعاتها ومواقفها التي أكسبتها إياها تجربتها الفردية"١٣.

وقد كشفت بويطيقا الأنوثة أن النص الشعري قد استطاع احتضان الذات الأنثوية والإنصات لاهتماماتها وآلامها ورغائبها، إنه الوجد الشعري الذي تخلق في رحمه أسمى معاني الحياة وصورها، وهو إعلان عن حياة جديدة؛ حياة في المعنى وبه، ترى الأنثى من خلاله تجاربها بوعيها هي وأحاسيسها هي، لا كما يريدها الذكر، وشتان بين هذا وذاك١٤.

وعلى ذا يمكننا القول: إن الشعر الأنثوي عبارة عن تشكيل فني لتصورات وتخيلات الأنثى في علاقتها بمحيطها الموجود، والشعر الأنثوي عبارة عن مكمون عاطفي دفين داخل الأنثى، وفي ذات الوقت عبارة عن عرض لما عانته الأنثى بأسلوب أدبي راقٍ؛ لذا من الطبيعي أن يأتي أكثر الشعر الأنثوي مغلفًا بهموم وأحزان بطابع نلمح فيه التمرد، إلا أنه يكون في ذات الوقت مصحوبًا بشيء من الرقة والعاطفة والسلاسة معبرًا عن طبيعة ذاتها الأنثوية. وبالتالي فإن هذا المفهوم يمثل –ربما- منعطفًا جديدًا في الرؤية البنيوية للشعر، وبالأخص بين ألوان الأدب الأخرى، وتأثره الحسي والانفعالي الكبيرين١٥.

المبحث الثاني

التجربة الأنثوية في شعر نازك الملائكة - نماذج مختارة

منذ الصغر بدأت نازك الملائكة كتاباتها الشعرية، وصولًا لمرحلة الارتقاء؛ حيث أصدرت ديوانها "عاشقة الليل" عام ١٩٤٧م، ليصبح هذا الديوان نقطة انطلاقها نحو الشهرة بين أبناء الوطن العربي، وتتوالى مجموعاتها الشعرية، وهي: "شظايا ورماد"، و"قرار الموجة" عام ١٩٥٧م في بيروت، و"شجرة القمر" عام ١٩٦٨م، و"مأساة الحياة" و"أغنية للإنسان" عام ١٩٧٠م.

والملاحظ أن كل ما كتبته نازك نابع من أعماق عواطفها وأحاسيسها، فقد عاشت في مجتمع راضخ للعادات والتقاليد الاجتماعية القديمة، حيث الجهل والنظرة الدونية إلى المرأة، بينما كانت أحلام نازك أكبر بكثير من واقعها؛ لذا فقد تصادمت معه وثارت عليه، ليوصلها ذلك إلى حالة من الحزن واليأس. أما عن حياتها الشخصية، فقد فضلت نازك البقاء وحدها دون زواج لظروف معينة، وقد أشارت إلى ذلك من خلال شعرها (مر القطار) الخاص بفارس أحلامها، وضمنت ذلك وصفًا عاليًا، وتمنت عودة فارس أحلامها ثانية.

تقول١٦:

وبقيتُ وحدي أسألُ اللَّيلَ الشَّرود
عن شاعري، ومَتى يَعود؟
ومَتى يَجيء به القطار؟

وعلى هذا الأساس تلاشى أملها، وسيطرت عليها الحياة، وتضمنت أشعارها الرمزية وروح اليأس، منها: الليل، الأسطورة، وغيرهما، وداهمت الأفكار المريرة نازك، وأخيرًا فقدت الأمل بالمستقبل. واقتنعت نازك بأن بين آمالها وحقيقة الواقع هوة كبيرة، فآثرت أن تظل تبكي وتنحب، فأصبحت خنساء هذا العصر. والمعروف أن نازك من عائلة أرستقراطية، لم تر الفقر، ولكنها كانت شريكة لآلام المجتمع، وحسب وجهة نظرها؛ فالمجتمع عبارة عن مفسدة، لا مساواة فيه.

ففي قصيدة (وجوه ومرايا) تقول١٧:

يا كؤوسَ الأحلامِ يا مَنْ تخيَّلْـ ... ـتُك أُفقًا تضمُّهُ الأضواءُ
آه لو تُدركينَ كيفَ أحسُّ الـ ... ـكَونَ صحراءَ خلفَها صحراءُ
والرَّحيقُ الذي حَلُمْتُ به كَيْـ ... ـفَ طَوَتْهُ المرارةُ الخرساءُ
كَيْفَ حينَ استلمتُ كأسيَ أرْسَلْـ ... ـتُ دموعي ولم يُفِدْني ارتواءُ

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

الفراغُ الفراغُ يقتلُني أوَّ ... اهُ لو كانَ للوجودِ وجودُ
آه لو لم تَحُلْ مواقعُ أقدا ... مي امتدادًا حدودُهُ اللاَّحدودُ
السكوتُ السكوتُ يفغَرُ فاهُ ... وغدًا يغربُ الهوى والنَّشيدُ
والظلامُ الظلامُ يطفئُ عينيَّ ... فماذا أحسُّ؟ ماذا أريدُ؟
أيُّها الليلُ، ليلَ روحي، أما مِنْ ... ملجأٍ من بُرودة الظَّلماء؟
ظمأٌ صارخٌ بأعماقِ نفسي ... لشعاعٍ مُسَلْسَلٍ من ضياء
آه لو لم يَحُلْ رجائي الإلهيُّ ... سرابًا ضَحْلًا وبعضَ عَزاء
آه لو كانَت السَّعادةُ شيئًا ... غيرَ هذي الفقاعة السَّوداء
لقَّبوها الحياةَ وهي اضطرابٌ ... أبديٌّ ولهفةٌ لا تَقَرُّ
في صفاء المرآة حدَّقْتُ في طَيْ ... ـفي طويلًا والشَّكُّ في مُقْلَتَيَّا
كائنٌ شاحبٌ يحدِّقُ في وَجْ ... ـهي مثلي مُحيَّرًا مَطْوِيًّا
هذه هذه أنا ليسَ مِنْ شَكٍّ ... فلِمَ لا أَمَسُّها بيديَّا؟
لمَ لا أستطيعُ أنْ ألمسَ الذَّا ... تَ؟ وأمحو تحرُّقي الأبديَّا؟
ثَمَّ ماذا؟ أمدُّ كفِّيَ في شَوْ ... قٍ عميقٍ فلا أُعانقُ ذاتي
صدمةٌ صدمةٌ تُمزِّقُ روحي ... ليسَ إلاَّ برودةُ المرآة
الزُّجاجُ الجبَّارُ شَفَّ ولكنْ ... عن مثالٍ مُشوَّهٍ للحياة
عن كيانٍ رَسَمْتُهُ أنا وَحْدي ... فإذا غِبْتُ غابَ في الظُّلُمات
الكيانُ المَمْسوخُ ها أنا أَمْحو ... هُ كفاهُ هُزْءًا بنارٍ أَسايا
ضربةٌ من يدي تحطَّمَت المرْ ... آةُ فوقَ الثرَّى وعادَتْ شَظايا
لَيْتَني كُنْتُ صُنْتُها عادَ وَجْهي ... ألفَ وجهٍ تُطِلُّ منها الضَّحايا
لَيْتَني كُنْتُ صُنْتُها لَيْتَني أَعْ ... لَمُ كَيْفَ المَرْآةُ عادَتْ مَرايا

ففي هذه القصيدة نجد الشاعرة تبحث عن ذاتها التائهة، حيث (الصحراء خلفها صحراء، والرحيق بات سرابا، والحياة فراغ في فراغ، والوجود لا وجود، والظلام يخيم في كل الأرجاء، والسعادة فقاعة سوداء، والحياة اسمها الحياة وهي اضطراب)، وهكذا ترى الشاعرة الحياة. ومن الملاحظ أن الشاعرة هنا تحاول لمس ذاتها وإدراكها، كي تعرف بالتالي من هي؛ لذا لجأت إلى المرآة كي ترى ما علق بها من ترسبات الزمان، عسى أن تعثر على ذاتها. فالقصيدة محاولة لتصوير ذات الشاعرة، وتنقيتها مما علق بها من غبار الحياة، والواضح أن الشاعرة لا تتحدث عن ذاتها المنفردة بل إنها تتحدث عن الذات الإنسانية بشكل عام، فهي كما ترى بنت الشاطئ "اندمجت في الذات الإنسانية، فما عاد يسهل أن نميز بينهما، أو نفصل إحداهما عن الأخرى". وفي اعتقادي أن الشاعرة هنا إنما تعبر عن ذات المرأة التي تعاني من ظلم المجتمع واضطهاده في ذلك الوقت، مما جعل وجودها لا يحسب وجود، وحياتها كلها اضطراب ومعاناة.

وفي قصيدة (جامعة الظلال) تقول الشاعرة١٨:

أخيرًا لمستُ الحَياهْ
وأدركْتُ ما هي أيُّ فراغٍ ثَقيلْ
أخيرًا تبيَّنْتُ سرَّ الفقاقيعِ واخَيْبَتاهْ
وأدرَكْتُ أنيَ أَضَعْتُ زمانًا طَويلْ
ألمُّ الظَّلالَ وأخبطُ في عَتْمةٍ المُستحيلْ
ألمُّ الظَّلالَ ولا شَيْءَ غيرَ الظَّلالْ

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

ومرَّتْ عليَّ اللَّيالْ
وها أنا أُدْرِكُ أنيّ لمسْتُ الحَياهْ
وإنْ كنتُ أصرُخُ واخَيْبَتاهْ!
ومرَّ عليَّ زمانٌ بطيءُ العُبورْ
دقائقُهُ تتمطَّى مَلالاً كأنَّ العُصورْ
هنالكَ تغفو وتنسى مواكبُها أنْ تدورْ
زمانٌ شديدُ السَّواد، ولَونُ النُّجومْ
يُذكِّرُني بعيونِ الذِّئابْ
وضوءٌ صغيرٌ يلوحُ وراءَ الغُيومْ
عرفْتُ به في النِّهايةِ لَوْنَ السَّرابْ
ووَهْمَ الحَياهْ
فواخَيْبَتاهْ
أهذا إذنْ هو ما لقَّبوهُ الحَياهْ؟
خُطوطٌ نظَلُّ نخطِّطُها فوقَ وجه المياهْ؟
وأصداءُ أغنيةٍ فظَّةٍ لا تَمَسُّ الشِّفاهْ؟
وهذا إذنْ هو سرُّ الوُجودْ؟
ليالٍ مُمزَّقةٌ لا تعودْ؟
وآثارُ أقدامنا في طريقِ الزَّمانِ الأَصَمْ
تمرُّ عليها يدُ العاصفَهْ
فتمسحُها دونما عاطِفَهْ
وتُسْلمُها للعَدَمْ
ونحنُ ضحايا هُنا
تجوعُ وتعطشُ أرواحُنا الحائرَهْ
ونحسَبُ أنَّ المُنى
ستملأُ يَومًا مشاعِرَنا العاصِرَهْ
ونجهلُ أنَّا ندورْ
مع الوَهْمِ في حَلَقاتْ
نجزِّئُ أيامَنا الآفلاتْ
إلى ذكرياتْ
وننتظرُ الغَدَ خلفَ العُصورْ
ونجهلُ أنَّ القُبورْ
تمدُّ إلينا بأذرُعِها الباردَهْ
ونجهلُ أنَّ الستائرَ تُخفي يدًا ماردَهْ

فهنا يأس وموت وخيبة أمل، فهي ميتة أو تكاد تكون ميتة، فاليأس يسيطر على الأجواء، حيث المجتمع البائس الذي كان يحارب كل شيء جميل حتى الجمال والأمل ومعاني الشعر الجميل، ورغم ذلك فهي تنتظر المنقذ المخلص الذي لا يأتي، والزمن ممل، ولا يحرك ساكنًا، دون

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

إحداث أي تغير، وبالتالي فلا طريق سوى الموت.

وفي قصيدة (غسلًا للعار) تقول١٩:

ويعودُ الجلاَّدُ الوحشيُّ ويلقى النَّاسْ
"العارُ"، ويمسحُ مديَتَهُ، "مزَّقنا العارْ
ورجعنا فُضلاءَ ببيضَ السُّمْعَةِ أَحْرارْ
يا ربَّ الحانةِ أينَ الخمرُ وأينَ الكاسْ
نادِ الغانيةَ الكَسْلى العاطِرَةَ الأَنْفاسْ
أفدي عينيها بالقرآنِ وبالأقدارْ"
املأْ كاساتِكَ يا جزَّارْ
وعلى المقتولةِ غَسْلُ العارْ!
وسيأتي الفجرُ، وتسألُ عنها الفتياتُ
"أين تراها؟" فيردُّ الوحشُ "قتلناها
وصمةُ عارٍ في جبهتنا وغسلناها"
وستحكي قصَّتَها السَّوداءَ الجاراتُ
وترويها في الحارةِ حتَّى النَّخلاتُ
حتَّى الأبوابُ الخشبيَّةُ لن تنساها
وستهمسُها حتَّى الأحجارْ
غَسْلًا للعارْ.. غَسْلًا للعارْ

فالرجال هنا هم الذين يحكمون والمحكوم عليه النساء، فالرجال يغسلون العار، وقتل المرأة بمثابة رفعة ورجولة للقبيلة؛ لأنها برأيهم أجرمت، بينما ما يطبق على النساء لا يطبق على الرجال، فالرجال لا يخطئون، ولا يُحاسَبون، فقط هم يصدرون الأحكام، والمرأة هي التي تُحاسَب، فالرجال يغسلون العار كي تبقى سمعتهم –ولباسهم– نظيفة، بينما المرأة سمعتها ملطخة بالسواد. هكذا كان حال المجتمع، ذكوريًّا في كل شيء، رغم أن الأمر –في هذا الموضوع تحديدًا– لم يتغير إلى يومنا هذا، فكيف لا تترك نازك الملائكة الكآبة واليأس؟! كيف لا تفقد الأمل في هذا المجتمع؟! وكيف لا تتمنى الموت؟! وكيف لا يكون الحزن ظاهرة بارزة في أشعارها؟!

وقد امتلكت نازك الملائكة قوة التصوير التي جعلتها قادرة على أن توصل المعاني بلغة عذبة وشفافة تفيض ألمًا وحزنًا، من ذلك قصيدتها (الراقصة المذبوحة)، التي جعلت الضحية تتصارع تحت قوتين، هما: الجرح، والثورة. تقول٢٠ :

أَسكتـي الجُـرْحَ، حَـرامٌ أنْ يَئِنَّا
وابسمي للقاتلِ الجـاني افتتانـا
امنحيـه قلبَكِ الحُـرَّ المُهانـا
ودعيـه ينتشـي حَـزًّا وَطَعْنـا
وارقصـي مذبوحـةَ القلـبِ وغَنِّـي
واضحكي فالجُرْحُ رقصٌ وابتسامُ

نرى هنا روح ثورة المذبوحة وانتفاضتها على الجلاد، إلا أنها لا تفي بالغرض للنجاة من الظلم الموجود، لأنها داخل جدار سجن العادات والتقاليد الظالمة، وقيود المجتمع الصارمة بحق المرأة تحديدًا؛ لذلك قررت الاستسلام وقبول الواقع المرير والانكسار، وتحاول أن تقنع نفسها بقبول الواقع الموجود، لذا وجدت أن الريح أقوى من أن تواجهها وحدها، فقررت العزلة والوحدة على الاختلاط بهذا المجتمع الظالم. ونرى من خلال هذه النماذج أن أجواء الحزن تخيم على أكثرية هذه القصائد، "وربما يعود غزارة الحزن عندها إلى ما يرافق

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

نفسية المرأة العربية من انضواء تحت قواعد اجتماعية إنسانية معينة، لا يمكن أن تتلاءم مع انطلاقة الشاعر الذي يرفض كل القيود، إضافة إلى الحساسية التي يتميز بها الشاعر"٢١.

وفي قصيدة (صراع) تقول٢٢":

أحبُّ وأكرهُ ماذا أحبُّ وأكرهُ؟ أيُّ شعورٍ عجيبْ؟
وأبكي وأضحكُ ماذا ترى يُثير بكائي وضحكي الغريبْ؟
أريدُ وأنفرُ، أيُّ جنونٍ حياتيَ؟ أيُّ صراعٍ رهيبْ؟
لماذا أُغنّي؟ لماذا أعيشُ؟ ومَنْذا أصارعُهُ؟ مَنْ يُجيبْ؟

نحس مدى التناقض الذي تعيشه الشاعرة، فدلالات الألفاظ: (أحب وأكره، أبكي وأضحك، أريد وأنفر)، وتصويرها الحياة حلبة صراع، وتساؤلها (لماذا أعيش؟)، كل ذلك يُشعر بما وصلت إليه الشاعرة من بؤس وشقاء في داخل مجتمعها الكئيب، فالملاحظ أنه لا أحد يفهمها، لا أحد يقدرها، وبالتالي فهي تفتقد العيش والأمان والاستقرار والحب الحقيقي، فكيف تستطيع العيش وكيف تساير هذا الحياة.

وفي قصيدة (تهم) تواجه الشاعرة مرة أخرى تحديات المجتمع٢٣:

أعبِّرُ عمّا تحسُّ حياتي وأرسُمُ إحساسَ روحي الغَريبْ
فأبكي إذا صَدَمَتْني السِّنونَ بخنجرِها الأبديِّ الرَّهيبْ
وأضحكُ ممَّا قضاهُ الزَّمانُ على الهيكلِ الأدميِّ العجيبْ
وأغضبُ حينَ يُداسُ الشُّعورُ ويُسخَرُ من فورانِ اللَّهيبْ

أعبِّرُ عن كلِّ حسٍّ أعيهْ
وأبكي الحَياةَ ولا أُنكرُ
وأضحكُ من كلِّ ما تحتويهْ
وأغضبُ لكنَّني أشعرُ

يقولونَ: شاعرةٌ في السَّحابِ تُحلّقُ خلفَ سرابِ النُّجومْ
أنانيّةٌ لا تحسُّ الوُجودَ وإنْ صرعَتْهُ جبالَ الغمومْ
خياليّةٌ تمقُتُ الكائناتِ وتخلقُ عالَمَها في الغُيومْ
خريفيّةٌ تكرهُ الضَّاحكينَ لتدفِنَ جبهتَها في الهُمومْ

أنانيّةٌ وأحبُّ البَشَرْ
خياليّةٌ وحياتي تَسيرْ
خريفيّةٌ وأُناجي الزَّهَرْ
وعاطفتي لَهَبٌ من شُعورْ

يقولونَ: عاشقةٌ للظَّلامِ تُحبُّ الدَّياجي وتهوى السُّكونْ
وتُنشدُ أشعارَها للجبالِ وترسُمُ أحلامَها للعُيونْ
تحبُّ الحَياةَ ولكنَّها تُعكِّرُها بخيالِ المَنونْ
ترى جوَّها غَيْهَبًا حالكًا يضيقُ بآثامِهِ المُلهَمونْ

أحبُّ الظَّلامَ ولكنَّني
أثورُ على كلِّ أحلامِكُمْ
أحبُّ الحَياةَ على أنَّني
أحقِّرُ مَوْكِبَ أيَّامِكُمْ

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

فهي هنا تسرد صراعها مع المجتمع في حوار جميل، حيث إنها تشرح مبينة نظرتها، ومدافعة عن نفسها من جهة أخرى أمام الذين ينكرون عليها أبسط حقوقها في الحياة أن يكون لها كيانها، وحق الاحتفاظ بخصوصياتها كونها امرأة، فهم ينكرون عليها أن تكون شاعرة، فاتهموها بأنها شاعرة وأنانية وخيالية وخريفية... إلخ، في الوقت الذي تمثل جمال الحياة بما تمنحه من حب لمحيطها، فهي تحب الحياة، تحب الجمال، تحب الطبيعة، مليئة بالإحساس والشعور، تساير الحياة، ولا تجد إجابة لكل هذه التهم غير ابتسامتها الساخرة.

وفي قصيدة (مأساة حياة) خير تجسيد للحياة التي عاشتها الشاعرة، حيث تقول٢٤:

عبثًا تحلمينَ شاعرتي، ما ... من صباحٍ لليلِ هذا الوُجود
عبثًا تسألينَ، لن يُكْشَفَ السِّرُّ ... ولن تَنْعمي بفَكِّ القُيود
في ظلالِ الصَّفْصافِ قَضَّيْتِ ساعا ... تكِ حَيْرى تُمضُّكِ الأسرارُ
تسألينَ الظِّلالَ والظِّلُّ لا يَعْـ ... ـلَمُ شيئًا وتعلمُ الأقدارُ

فالخطاب كما هو واضح موجه إلى ذات الشاعرة نفسها، حيث إنها تخاطبها قائلة: كل أحلامك عبث وهباء، فليلها لا صباح له، وقيودها من المحال فكها، معبرة بذلك عن قيود عصرها بعد أن قضت حياتها حيرى لا تدري ما تفعل، فهي لا تجد ملاذًا لها سوى أن تسأل الظلال التي لا تعرف شيئًا، بل تعلم الأقدار. ونرى هنا قمة اليأس والحزن، وهي ظاهرة ليست غريبة كما مر معنا، نلاحظ أنها أصبحت جزءًا من محتوى شعر نازك؛ حيث إنها تفرض نفسها بقوة على أشعارها، وفي هذا المجال يرى عبد الله الغذامي: "إن الحديث عنه حصريًّا، واتخاذه موضوعًا خاصًّا بالشعر لم يكن ذا بال، وكان مهمشًا لا يلتفت إليه إلى أن جاءت القصيدة الحرة فحررت هذه الدلالة من إسارها"٢٥.

بعد وقوفنا على هذه النماذج الشعرية لنازك الملائكة نستطيع أن نجزم بالقول: إن نازك الملائكة قد أحدثت ثورة في الشعر بضربها عمود الشعر العربي، بل إنها استطاعت أيضًا ضرب مضمونه ولغته حينما تحدثت بلغة الأنثى وعلى لسانها، وإن لم تصرح في كثير من الأحيان بذلك مباشرة. ومن جهة أخرى جعلت صرخة الأنثى تصدح في الآذان حينما ركزت في قصائدها على ما تعانيه الأنثى داخل المجتمعات الشرقية من ظلم واضطهاد، وما يمكن أن تلعبه هذه المجتمعات إذا ما توجهت نحو الانفتاح، وفتحت أحضانها للعنصر الأنثوي. فقد نجحت في أن تمهد إلى وضع حجر الأساس للأنثوية الشعرية؛ أي التركيز على مضمون القصيدة باعتبارها إحدى أهم نقاط التميز التي تميز الأنثوية الشعرية على الساحة الأدبية.

وهنا قد يكون لدينا مجال للرد على من يرى أن نازك الملائكة لم تطرح في قصائدها قضايا المرأة ومشاكلها والتمرد على التقاليد. وإذا كان الأمر كذلك، فماذا نسمي ما مر معنا من نماذج شعرية، والتي لا تمثل سوى نماذج بسيطة من دووين الشاعرة، وقد حاولت الشاعرة في طرحها الانصراف عن الواقع الضيق والتحليق بأحلامها وآمالها عن عوالم فسيحة من الأوهام والخيارات والتهاويل الجميلة البراقة٢٦.

نتائج البحث

بعد وقوفنا على الموضوع توصل البحث إلى النتائج التالية:

- الكتابة الأنثوية عند الشاعرة ردة فعل للتسلط الذكوري على ساحة الحياة بشكل عام والساحة الأدبية خاصة.
- تعد الكتابة الأنثوية مطلبًا معرفيًّا ونفسيًّا واجتماعيًّا، إضافة إلى كونها مطلبًا جماليًّا يرتبط ارتباطًا حميمًا بعلاقة المرأة الفطرية النفسية بالجمال.
- الأنثوية الشعرية عند نازك الملائكة تحيلنا إلى الحضور الأنثوي في الشعر كيانًا وروحًا، فالأنثى ذات شعرية بامتياز.
- الحزن واليأس شكَّلا جزءًا رئيسًا من شعر نازك الملائكة؛ لتعبر بالتالي عن مدى هموم المرأة في المجتمع العربي.
- أحدثت الشاعرة ثورة في الشعر بضربها عمود الشعر العربي، بل إنها استطاعت أيضًا ضرب مضمونه ولغته حينما تحدثت بلغة الأنثى وعلى لسانها، وإن لم تصرح في كثير من الأحيان بذلك بشكل مباشر.

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

المصادر والمراجع

١ - ينظر: أنثى اللغة، زليخة أبو رشيد، دار نينوى، دمشق، ط ٢٠٠٩م، ص ٧٧.

٢ - قراءة في الخلفية المعرفية لخطاب المرأة في المغرب، د. رياض القريشي، دار حضرموت للدراسات والنشر،٢٠٠٨م، ص ٢٥.

٣ - الأنثوية الشعرية، جليل إبراهيم االزهيري، ص ١٩.

٤ - النسوية وما بعد الشعرية، سارة جامبل، ص ٣٣٧.

٥ - الأنثوية الشعرية، جليل إبراهيم الزهيري، ص ٢٢.

٦ - تأنيث القصيدة والقارئ المختلف، عبد الله محمد الغذامي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط ١، ١٩٩٩م، ص ١٦-١٧.

٧ - صنم المرأة الشعري، دار المدى، دمشق، ط ١، ١٩٩٧م، ص ١١٩.

٨ - تجليات الأنثى المتمردة في القصيدة النسوية العربية - الكتابة والمتخيل، مهرجان الجرش السابع عشر (١٩٩٨م)، المؤسسة العربية للدار والنشر، بيروت، ط ١، ١٩٩٩م، ص ١٠٦.

٩ - سادنات القمر: سرانية النص الشعري الأنثوي، محمد العباس، دار نينوى، دمشق، ط ١، ٢٠١٠م، ص ٦٠.

١٠ - ينظر: النظرية النسوية وإشكالية المصطلح، د.عصام واصل، ص ٥٢.

١١ -النسوية وما بعد النسوية، سارة جامبل، ترجمة/ أحمد الشامي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص ٣٣٧.

١٢ - أفق الخطاب النقدي، صبري حافظ، ط ١، دار شرقيات، القاهرة، ص ٣٥-٣٦.

١٣ - الذات في الكتابة النسوية، ص ٤٠.

- ١٤ أنطولوجيا الوجود الشعري الأنثوي، د. سليمة المسعودي، ص١٢.

١٥ - ينظر: الأنثوية الشعرية، ص ٢٢.

١٦- ديوان نازك الملائكة، ج٢، ص ٦٠.

١٧- المرجع نفسه، ج٢، ص ١٦١-١٦٢.

١٨- المرجع نفسه، ج٢، ص ١٠١-١٠٥.

١٩- المرجع نفسه، ج٢ ، ص ٣٥١-٣٥٣.

٢٠- المرجع نفسه، ج٢، ص ٣٣٠-٣٣١.

٢١- الحلم والحزن في الشعر العربي المعاصر، مجلة آفاق عربية، العدد ٦، د.ت، ص ٥٦.

٢٢- المرجع نفسه، ج٢، ص٥٠.

٢٣- المرجع نفسه، ج٢، ص ١٧٨.

٢٤- المرجع نفسه، ج١، ص ٢٢.

٢٥- تأنيث القصيدة، عبد الله محمد الغذامي، ص ٥٧.

٢٦- شعر المرأة العربية المعاصرة (١٩٤٥ – ١٩٧٠م)، ط ١، دار الحداثة للطباعة والنشر، لبنان، ١٩٩٠م.

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2